مسائل البنية والدّلالة عند ابن جنّي

أ. حميدة علوش.

قسم اللّغة العربية وآدابها

كلّية الآداب واللّغات

جامعة البليدة-2-

الملخّص:

أثار ثلة من الدارسين القدامى جملة من المسائل والقضايا ، وانتهوا إلى وضع بعض الفرضيات التي حاولوا البرهنة على صحتها بعيّنات معدودة من العربية، وقد كان ابن جني من ألمع من بحث في خصائص العربية وأسرارها.

تتناول هذه الدراسة عرض أهمّ القضايا التي طرحها ابن جني، والتي تتعلّق في الأساس بثنائية (صوت، معنى)، وخبايا العلاقة بين الشكل والمضمون، ومسائل البنية والدلالة، وما انتهى إليه من فرضيات لا تزال إلى يومنا تحتاج إلى مزيد من الدراسة حتى تتم البرهنة على صحتها.

وعليه فقد حاولنا في هذا البحث الإجابة عن الإشكالية التي مفادها:

ما أهمّ الفرضيات التي عرضها ابن جني في كتابه "الخصائص"، وكيف يمكن الاستفادة منها؟

ولذلك فإنّ هذه الدراسة تهدف في الأساس إلى الإشارة إلى هذه المسائل اللّغوية محاولة للتذكير بها، لأجل متابعة البحث فيها والاستفادة منها.

الكلمات المفتاحية:

قضايا لغوية، الفرضيات ، البرهان ، (صوت، معنى)، (الشكل، المضمون) ، (البنية، الدلالة).

The summary:

A group of ancient scholars related a number of issues and ended up to posing some hypotheses that they tried to prove their validity with a few simple from Arabic. Ibn djinnie was a scholar of research in the characteristics of Arabic, and its mysteriest.

This study deals to present some matter , that Ibn djinnie presented in his book (el khassais) ,that is related to two characters (the sound and the meaning),and the hidden relationship between form and content, structure and significance, that is which hypotheses that ended up to now, it reeds a lot of studies until it be proved about its facts,and from that this research try to answer about problem that is: what is it an important hypotheses that ibn djinnie presented it in his book (el khassais), and how we can benefit from it?

Therefore this study aims to refer and sign to these linguistic issues as an attempt to remind them ;in order to continue the research and benefit from it.

key words :

Language ,issues, hypotheses, (sound,meaning),

(form, content) , (structure, significances

مقدمة:

يزخر التراث اللّساني العربي بمسائل قيّمة، تثبت بجدارة مدى رقيّ الجهود العربية في ميادين لغوية كثيرة، حتى أنّ بعض الدراسات اللّسانية التي يعدّها الأوربيون حديثة هي في الحقيقة من المحاولات القيّمة التي وضع علماؤنا من العرب اللّبنة الأولى فيها ،إذ لا يمكن إنكار جهود العلماء العرب في مجال الفونولوجيا، والأصوات، والدلالة،الخ...، فقد استطاعوا بعلمية وموضوعية أن يخوضوا في مواضيع شريفة لطيفة أعلن عنها الدرس اللّساني حديثا.

لقد كانت العربية ولا تزال لغة دين وعلم ، إلّا أنّه " لم يكتب للدراسات اللّغوية العربية أن تنمو فيما بعد القرن الخامس الهجري ، فلقد كان كلّ جهد يبذل بعد هذا القرن إمّا في سبيل الشرح، وإمّا في سبيل التعليق، وإمّا في سبيل التحقيق و التصويب، أمّا العمل المبتكر، والذهن المبدع، فقد أقفل باب الاجتهاد فيه. "[1]

خاصة وأنّا وجدنا ثلة من الدارسين القدامى قد أثاروا جملة من المسائل والقضايا ، وانتهوا إلى وضع بعض الفرضيات التي حاولوا البرهنة على صحتها بعيّنات معدودة من العربية، وإلى يومنا لا تزال تلك المحاولات حبيسة كتبهم كقضايا عالقة لم تلق أيّ اجتهاد يُذكر بعد الذي اجتهد فيه القدامى، غير تلك الالتفاتات لبعض الدارسين المحدثين، مع أنّ علماءنا من العرب نبّهوا في أكثر من موضع (كما سيتبيّن ذلك لاحقا) على أهمّية هذه المواضيع الشريفة الطريفة من اللّغة، وأنّها ممّا يحتاج إلى فضل تأمّل، في مجالات عديدة على اختلاف علوم اللّغة وتمايز مستوياتها.

ومن بين أهمّ هذه القضايا ثنائية (صوت، معنى) ، وخبايا العلاقة بين الشكل و المضمون، ومسائل البنية والدلالة.

قابل الدارسون العرب القدامى المبنى بالمعنى، وانتهوا إلى استخلاص معادلتين لغويتين مفادهما أنّ: تشابه المبنى ⟸ تقارب المعنى.

و

تغيّر المبنى ⟸ تغيّر المعنى.

وقد حاولوا البرهنة على صحة هاتين القاعدتين بشواهد لغوية من العربية ، يمكن أن نستخلص منها أكثر من فرضية كذلك.

I. العلاقة بين الصوت والمعنى:

لقد صار من المتّفق عليه بين جمهور الدارسين أنّ الحروف – باعتبارها أقسام ذهنية كمحتوى مفهوم[2]– لا تحمل معنى في ذاتها، ولكنّها بالمقابل تؤدي وظيفة في النّظام اللّغوي وتساهم - باختلاف كمّها و تنوّع وظائفها نوعا- في تكوين المعنى وتشكيل البنية النّصية.

وقد تحدّث غير واحد من العلماء عن الوظيفة البيانية والقيمة التعبيرية للحرف الواحد في اللّغة العربية ، وما كتبه ابن جني عن ذلك كان من أروع ما خلّفه عن حقائق العربية وأسرارها في كيفية اختيار حروفها ، وتشبيه أصواتها بالأحداث المعبّر عنها ، وترتيبها على سمت المعنى المقصود ، والغرض المطلوب .

فقد تبيّن " أنّ للحرف الواحد في العربية إيحاءا خاصا، فهو إن لم يكن يدلّ دلالة قاطعة على المعنى يدلّ دلالة اتّجاه وإيحاء ويثير في النّفس جوّا يهيّء لقبول المعنى و يوجّهه إليه، و يوحي به "[3].

وقد استدلّ القدامى على صحة ذلك بفرضية مفادها : أنّ صفات وخصائص الحرف الصوتية تقابل صفات وخصائص الأحداث المعبّر عنها.

وانطلاقا من منهج وصفي مقارن قابلوا بين الأصوات وما تعبّر عنه، على أساس أنّها إسقاطات له، وخرجوا بأكثر من نتيجة :

1*التطابق الصوتي الدلالي:

وممّا جاء في ذلك تسمية الأشياء بأصواتها" كالخازباز لصوته، والبط لصوته...وغاق للغراب لصوته...ونحو منه قولهم: حاحيت وعاعيت وهاهيت, إذا قلت: حاء وعاء وهاء. وقولهم: بسملت وهيللت وحولقت؛ كلّ ذلك وأشباهه إنما يرجع في اشتقاقه إلى الأصوات. والأمر أوسع".[4]

2*التوازن الصوتي الدلالي :

وبمعيار علمي قابل اللّغويون العرب المسموع بالمحسوس، وبمنهج وصفي مقارن قابلوا صفات الحروف الصوتية بصفات الأحداث المعبّر عنها، فتنبّهوا إلى ذلك التوازن الدقيق بين الطرفين حيث تقابل قوّة الحرف قوّة الحدث ، وبالتالي تقابل قوّة اللّفظ قوّة المعنى التي تستدعيها.

(قوّة الحرف = قوّة المعنى)

من ذلك " قولهم :خضم وقضم ، فالخضم لأكل الرطب كالبطيخ و القثاء، وما كان نحوهما من المأكول الرطب، والقضم للصلب اليابس نحو: قضمت الدابة شعيرها، ونحو ذلك ...، فاختاروا

الخاء لرخاوتها للرطب ، والقاف لصلابتها لليابس حذوا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث." [5]

ولعلّ القاعدة التي استندوا إليها للخروج بهذه الفرضية هو أنّ [الألفاظ أدلّة على المعاني] بدليل ما صرّح به ابن جني في الخصائص: " ...وذلك أنّهم لمّا جعلوا الألفاظ دليلة على المعاني، فأقوى اللّفظ ينبغي أن يقابل به قوّة الفعل "[6]، حتى يحدث ذلك التوازن (الطبيعي اللّغوي) بين ما يحدث في الطبيعة، و ما يحدث في اللّغة التي تنقل و تعبّر عن ذلك الحدث بدقة متناهية بالموازاة.

وانطلاقا من معطيات صوتية مسموعة و أخرى مادية محسوسة ، وبأمثلة معدودة من اللّغة استدلّ ابن جني - وغيره – على صحة هذه الفرضيات ،تجد بعضا منها في باب عقده ابن جني في الخصائص تحت عنوان " مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث " يقول فيه : " أمّا مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فباب عظيم واسع ، ونهج متلئب عند عارفيه مأموم، وذلك أنّهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبّر بها عنها فيعدلونها بها و يحتذونها عليها ، وذلك أكثر ممّا نقدّره وأضعاف ما نستشعره. "[7]

3*التناسب الصوتي الدلالي:

لقد أفاض الباحثون قديما وتوسّعوا في البحث في الدلالة الصوتية وقد " عرفوا لكلّ حرف صوته صفة و مخرجا مثلما عرفوا له إيحاءه دلالة و معنى "[8] ، من ذلك "ازدحام الدال والتاء والطاء والراء واللام والنون إذا مازجتهن الفاء على التقديم والتأخير, فأكثر أحوالها ومجموع معانيها أنها للوهن والضعف ونحوهما"[9].

على أنّ " كلّ لفظة دالة ينبغي أن تكون محاكية للمعنى المدلول عليه، و معرّفة بطبعها لذات ذلك الشيء، أو لِعرَض يكون علامة للمدلول عليه خاصة ." [10] "فكلّما ازدادت العبارة شبها بالمعنى كانت أدلّ عليه ، وأشهد بالغرض فيه "[11]، فالمحاكاة "تقوم على مبدأ المضاهاة بين أجراس الحروف و أصوات الأفعال التي تعبّر تلك الأجراس عنها، وهو مبدأ يُطلق عليه لفظ الاتّفاق أو التّناسب ".[12]ومن ألطف ما جاء في اللّغة إضافة إلى اختيار الحروف وتشبيه أصواتها بالأحداث المعبّر عنها بها، ترتيبها وتقديم ما يضاهي أول الحدث، وتأخير ما يضاهي آخره، وتوسيط ما يضاهي أوسطه, سوقا للحروف على سمت المعنى المقصود والغرض المطلوب،" وذلك قولهم: بحث، فالباء لغلظها تشبه بصوتها خفقة الكف على الأرض، والحاء لصحلها تشبه مخالب الأسد وبراثن الذئب, ونحوهما إذا غارت في الأرض والثاء للنفث، والبث للتراب".[13]

تؤكد هذه النظرية في أحد جوانبها علاقة من نوع خاص(طبيعية لغوية) بين الدوال ومدلولاتها "حيث يؤكّد هذا الارتباط مبدأ العفوية الطبيعية في قضية المحاكاة ، حيث

تكون اللّغة مرآة تعكس صورة موجودة على مرآة ثانية حصلت فيها بموجب انتصاب موجود محسوس قبالتها "[14].

و بآليات لغوية حاول واضعو اللّغة أن يجعلوا الألفاظ عبارات عن المعاني صوتيا ودلاليا على حدّ سواء ، فكذلك قال الخليل (ت175ه)، وهو ذات ما ذهب إليه سيبويه (ت180ه) أيضا ، فيما نقله عنهما ابن جني في الخصائص تحت باب " في إمساس الألفاظ أشباه المعاني " قوله : " واعلم أنّ هذا موضع شريف لطيف ، وقد نبّه عليه الخليل وسيبويه ، وتلقّته الجماعة بالقبول له والاعتراف بصحته[15]"، قال الخليل: " صرّ الجندب صريرا، وصرصر الأخطب صَرْصَرَة، فكأنّهم توهّموا في صوت الجندب مدّا، وتوهموا في صوت الأخطب ترجيعا ،ونحو ذلك كثير مختلف."[16]

فكان اللّفظ إسقاط للمعنى المحسوس، وهو ضرب من أضرب المحاكاة يُطلق عليه مصطلح "المحاكاة التعاملية"، و" تقوم على ضرب من تعامل دلالة الأصوات الفيزيائية، ودلالة الهيكل الوزني لقوالب الألفاظ "[17]

4*المحاكاة البنائية:

كما عقد سيبويه في كتابه بابا بعنوان "باب بناء الأفعال" بحث فيه ثنائية (بنية،دلالة)، وأسرار العلاقة الكامنة بين الشكل والمضمون، حيث ذكر فيه خبايا بناء بعض المصادر وآليات ذلك، وكشف أنّ سبب اجتماع بعض المصادر على بناء واحد يرجع إلى تقارب معانيها أوتشابهها، واستدلّ على صحة ذلك بأكثر من مثال ، من ذلك: " ... المصادر التي جاءت على مثال واحد حين تقاربت المعاني قولك: النزوان، والنقزان، وإنّما هذه الأشياء في زعزعة البدن واهتزازه في ارتفاع...ومثل هذا الغليان ، لأنّه زعزعة وتحرك. ومثله الغثيان، لأنّه تجيش نفسه وتثور. ومثله الخطران واللمعان، لأنّ هذا

اضطراب وتحرك.ومثل ذلك اللهبان والصدخان، والوهجان، لأنّه تحرك الحر وثؤوره، فإنّما هو بمنزلة الغليان...

وقد جاؤوا بالفعلان في أشياء تقاربت ،وذلك : الطوفان، والدوران، والجولان، شبهوا هذا حيث كان تقلبا وتصرفا بالغليان و الغثيان، لأنّ الغليان أيضا تقلّب ما في القدر وتصرفه...وهذه الأشياء لا تضبط بقياس ولا بأمر أحكم من هذا"[18] ،وهي بعد إحدى نكت العربية، وسنن العرب في كلامها، فقد " قابلوا بتوالي حركات المثال توالي حركات الأفعال [19]، وهذا ما أطلق عليه حديثا مصطلح " المحاكاة البنائية " بعبارة المسدي " وذلك بأن يصوّر هيكل اللّفظ جملة دلالته، أو أن يعكس بناؤه مراحل معناه فيأتي اللّفظ حاكيا مدلوله بمجرّد قالبه اللّغوي المحسوس"[20].

ويدخل في هذا الباب كذلك ما جاء ذكره في باب عقده ابن جني في "الخصائص بعنوان "باب في تلاقي المعاني على اختلاف الأصول والمباني" ، وقد نبّه فيه على ميزة خصّت العربية حيث يعتنق الفكر المعاني مجردة من الألفاظ ، يقول فيه: "وهذا مذهب في اللّغة طريف غريب لطيف ،وهو فقهها ، وجامع معانيها ،وضام نشرها،... وكان أبو علي -رحمه الله- يستحسن هذا الموضع جدّا وينبّه عليه, ويسر بما يحضره خاطره منه. هذا باب إنّما يجمع بين بعضه وبعض من طريق المعاني مجردة من الألفاظ, وليس كالاشتقاق الذي هو من لفظ واحد, فكأن بعضه منبّهة على بعض. وهذا إنّما يعتنق فيه الفكر المعاني غير منبهته عليها الألفاظ, فهو أشرف الصنعتين، وأعلى المأخذين. فتفطّن له، وتأنّ لجمعه؛ فإنه يؤنقك ويفيء عليك, ويبسط ما تجعد من خاطرك, ويريك من حكم الباري عزّ اسمه ما تقف تحته، وتسلم لعظم الصنعة فيه، وما أودعته أحضانه ونواحيه"[21].

كما يمكن إدراج تحليل ابن جني لدلالة الصيغ الصرفية المزيدة على معانيها تحت هذا الضرب، "وهو تحليل مستفيض حاول فيه الغوص في أسرار هذا التآلف بين بناء

المسموع اللّغوي ومدلوله المكرّس" [22]، وغير هذا كثير من أضرب التماثل ما اللّطف فيه أظهر، والحكمة أعلى وأصنع يتجاوز مظاهر الاتّفاق و الصدفة حتى يخرج به من الاعتباطية الظاهرية ، وكيف ابتدع واضعو اللّغة أكثر من طريقة في اللّغة ليعبّروا بها عمّا يحدث في الطبيعة حتى تكون أشبه بالمعنى وأدلّ

عليه .

إنّ الذي أعطى قضية المحاكاة بعدها اللّساني الخاص وركّز لها القواعد التأسيسية على مستويي التنظير و الممارسة فإنّما هو ابن جني [23] رائد دراسة الدلالة الصوتية قبل أن يتوسّع فيها علم اللّغة الحديث.

وانطلاقا من هذه الفرضية فإنّ كلّ تغيّر في المبنى يؤدي إلى تغيّر في المعنى ، ويذهب ابن جني كذلك إلى أنّ التشابه في المبنى يستلزم تشابها في المعنى ،خاصة إن كان الحرفان يحملان أكثر من صفة صوتية متشابهة ما يؤكّد صلة قوية بين الطرفين ، من ذلك قول اللّه سبحانه وتعالى " ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا "[24] ،أي تزعجهم و تقلقهم فهذا في معنى تهزهم هزا ، و الهمزة أخت الهاء، فتقارب اللّفظان لتقارب المعنيين، و كأنهم خصوا هذا المعنى بالهمزة لأنها أقوى من الهاء، و هذا المعنى أعظم في النفوس من " هز " لأنّك قد تهز مال بال له كالجذع و ساق الشجر و نحو ذلك. [25] "

قابل ابن جني قيم السمات الخلافية الصوتية للحرف الواحد بالقيم الخلافية المعنوية التي تستدعيها ، فهذه السمات التمييزية هي التي تضع حدود الحروف لتميّز لكلّ عنصر لغوي هوية وقيمة داخل النّظام اللّغوي .

و لعلّ الإشكال الذي يطرح في هذا المقام هو :

- إلى أي مدى يمكن تطبيق هذه الفرضيات، و تحقيق هذا التوازن الطبيعي اللّغوي ؟ ثم ماهي النتائج الممكن ترتبها عن هذه الفرضيات ، وكيف يمكن توظيفها، والاستفادة منها؟

II. العلاقة بين المبنى والمعنى:

استلزمت الصلة الوثيقة التي عقدها الدارسون العرب بين الصوت والمعنى صلة من نوع آخر بين اللّفظ والمعنى، فكذلك قابل الدارسون العرب الألفاظ التي تتشابه موادها بأن تشترك في أكثر من حرف بالمعاني التي تدل عليها، فانتهوا إلى فرضية مفادها أنّ :

(تشابه المبنى ← تقارب المعنى)

و هذا ما انتهى إليه ابن جني و نبّه عليه في باب عقده في الخصائص بعنوان " تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني "، وهو على أضرب يتوفر في أكثر من ظاهرة لغوية كالآتي:

1 - الاشتقاق الأصغر : بأن يجتمع الأصل الواحد - مهما اختلفت صيغه و مبانيه - على معنى واحد مشترك ، وذلك كتركيب " س ل م " فإنّك تأخذ منه معنى السلامة في تصرفه نحو "سلم، يسلم ، وسالم ، وسلمان و سلمى و السلامة "[26]. فمادة "س ل م " كأصل ثلاثي هي القاسم المشترك بين مجموع مشتقاتها (مادة و معنى) بترتيب واتجاه واحد.

ولعلّ هذا ما يؤكّده ابن فارس في معجمه "مقاييس اللّغة"[27].

2- الاشتقاق الأكبر: كما نظر الأوّلون في التراكيب التي تشترك في نفس الحروف دون النظر في ترتيب موادها واتجاهه ، يكفي أنها تشترك في عناصر مادتها ، فوجدوا أنّها ترجع إلى معنى واحد يضمّها نحو "ك ل م " ، "ك م ل " ، "م ك ل " ، "م ل ك "، "ل ك م " ،

" ل م ك "، إذ تُعْقَدُ تقاليب الأصل الواحد على معنى عام مركزي يجمعها (القوة والشدة)، و"المستعمل منها أصول خمسة و هي: "ك ل م "، "ك م ل "،"ل ك م " ، "م ك ل " ، "م ل ك "، و أهملت منه "ل م ك " فلم تأت في ثبت .

فمن ذلك الأصل الأوّل "ك ل م " منه الكَلْم للجرح ، وذلك للشدة التي فيه...، ومنه الكلام وذلك أنّه سبب لكلّ شر و شدّة في أكثر الأمر ...و جرح اللّسان كجرح اليد ،و قال طرفة:

فإنّ القـوافي يتلجن موالـجا *** تضـايق عنها أن تـولجها الإبـر

...و(قال) الطائي الصغير:

عتـاب بأطراف القـوافي كأنّه *** طعان بأطراف القـنا المنكـعر.

وهو باب واسع ، فلمّا كان الكلام أكثره إلى الشر ، اشتُقّ له من هذا الموضع ، فهذا أصل .

الثاني " ك م ل " من ذلك كَمُل الشيء ...و التقاؤهما أنّ الشيء إذا تمّ و كمل كان حينئذ أقوى، وأشدّ منه إذا كان ناقصا غير كامل .

الثالث " ل ك م " منه اللّكم إذا وجأت الرجل ونحوه ، ولا شكّ في شدّة ما هذه سبيله.

الرابع" م ك ل " منه بئر مكول ، إذا قلّ ماؤها ، وقال القطامي :

كأنّها قلب عادية مكل.

والتقاؤهما أنّ البئر موضوعة الأمر على جمتها بالماء ، فإذا قلّ ماؤها كره موردها، وجفا جنبها وتلك شدّة ظاهرة .

الخامس"م ك ل " من ذلك ملكت العجين إذا أنعمت عجنه فاشتدّ و قويَ ".[28]

فهذه أحكام هذا الأصل على تصرفه و تقلّب حروفه .

والمستفاد من كلّ هذا فرضية مفادها أنّ: الاشتراك في أكثر من حرف يستلزم الاشتراك في المعنى المركزي ، أو بصيغة أ خرى :

ج (ن ح) ⟸ (1 م)

مجموع ن حرف يستلزم معنى مركزي واحد .

وممّن آمن بهذه الفكرة ، واحتذى حذو ابن جني وغيره في محاولة إيجاد علاقة دلالية بين اللّفظ والمعنى الزمخشري (ت538ه) من خلال ما تقدّم به في كتابه"الفائق في غريب الحديث"، قوله على سبيل المثال :" ويح وويب وويس ثلاثتها في معنى الترحم، وقيل: ويح رحمة لنازل به بلية، وويس رأفة واستملاح كقولك للصبي: ويسه ما أملحه، وويب مثل ويح وأمّا ويل فشتم ودعاء بالهلكة وعن الفراء: إن الويل كلمة شتم ودعاء سوء وقد استعملتها العرب استعمال "قاتله اللّه" في موضع الاستعجاب. ثم استعظموها فكنّوا عنها بويح وويب وويس." [29]

و الإشكال الذي يُطرَح في هذا المقام هو:

- إلى أيّ مدى يمكن تعميم هذه الفرضية ؟ وما هي القوانين التي تحكمها ؟وهل من أضرب أخرى تتوفر فيها غير الذي ذكر ؟

خاصة وأنّ ابن جني يعترف بأنّ الذي استنتجه لا يمكن تطبيقه على جميع اللّغة، وهذا ما أعلم به في الخصائص ، يقول مصرّحا بذلك :" واعلم أنّا لا ندّعي أنّ هذا مستمر في جميع اللّغة ، كما لا ندّعي الاشتقاق الأصغر أنّه في جميع اللّغة ، بل إذا كان هو في القسمة سدس هذا

أوخمسه متعذّرا صعبا ، كان تطبيق هذا وإحاطته أصعب مذهبا و أعزّ ملتمسا ، بل لو صحّ من هذا النّحو، و هذه الصنعة المادة الواحدة تتقلّب على ضروب التقلب كان غريبا معجما فكيف به، وهو يكاد يُساوِق الاشتقاق الأصغر، و يجاريه إلى المدى الأبعد ، وقد رسمت لك منه رسما فاحتذه وتقبّله تحظ به ".[30]

فابن جني لا يدّعي توفر و استمرار هذه الظواهر في جميع اللّغة لتعذّر ذلك وصعوبة تطبيقها ، ويزداد الأمر صعوبة لمّا تحاول عقد الأصول المتشابهة على معنى واحد يجمعها ، فذلك بعبارة ابن جني أعوص مذهبا و أحزن مطربا ، إذ يحتاج إلى بعد تحليلي ينم عن بعد معرفي وخبرة يقول :" تجتمع التراكيب الستة (في الاشتقاق الأكبر)، و ما يتصرّف من كلّ واحد منها عليه (معنى واحد) ، وإن تباعد شيء من ذلك زد عليه بلطف الصفة و التأويل إليه." [31]

ولا يكاد يحيط به أكثر الدارسين مع أنّ أكثر كلام العرب عليه ، وهذا ما يؤكده ابن جني في مقاله : " هذا غور من العربية لا ينتصف منه ولا يكاد يحاط به ، و أكثر كلام العرب ، وإن كان غفلا مسهوا عنه "[32]، مع أهميته، فهو فصل من العربية حسن المنفعة ، قوي الدلالة على شرف هذه اللّغة ، وقد يحيلك ويأخذ بيديك .[33]

فهي إذن دعوة صريحة من ابن جني إلى ضرورة الالتفات إلى هذه المسائل التي أثارها، ونبّه عليها لاستخراج قوانين العربية بعد اكتشاف آليات وخصائص تركيبها، و منافع أخرى قد تحيل عليها .

III. المجالات التطبيقية لفرضيات ابن جني:

إنّ عملية تجسيد الصوت للمعنى هي ما تعرف حديثا بـ" الأنوماتوبيا "[34] (ANOMATOPEA) التي لا يزال المحدثون يؤكدونها ويبحثون عن دلالتها وجمالياتها في الاستعمال كدورها في التشكيل الصوتي و التقارب الدلالي.

وإنّك لتجد هذه الخاصية في أكمل أشكالها وأجلى مظاهرها في كتاب اللّه عزّ وجلّ ، اقرأ قوله تعالى : " وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إنّي أراك و قومك في ضلال مبين "[35]،

ولاحظ أمر ترديد حرف الألف – وهو حرف يخرج من أقصى الحلق،من صفاته الجهر

والشدة- [36] في بداية تسع وحدات متتالية ليدلّ بدلالة صفاته على عنصر المفاجأة العلنية [إذ، أتتخذ، إنّي أراك]، وعلى الشدة و القوة الوهمية في [أب ، آزر ، أصناما ، آلهة]، وحتى في كلمة "إبراهيم " وهو "اسم سرياني معناه :أب رحيم ، وقيل مشتق من البرهمة ، وهي شدّة النّظر."[37]

ولاحظ ذلك التروّي في النّطق الذي مرجعه في كلّ مرة إلى أقصى الحلق للنّطق بالألف المهموزة والهاء (ثلاث مرات)، بعد الوصول إلى الشفتين للنطق بالميم و الباء ،وهذا الاستثقال في النطق يقابل استثقال إبراهيم عليه السلام شرك أبيه ولزومه ، رغم العودة إلى دعوته مرارا [كما يتّضح في سورة مريم] ، وطول مدّة الدعوة التي يقابلها استطالة في النّطق الناتج عن استعمال حروف المد وحروف متباعدة المخارج تنطلق من أقصى الحلق وصولا إلى الشفتين ، كلّ هذا كوّن إيقاعا مستثقلا بطيئا محمّلا بمشاعر الأسى و الحزن ، وبهذا يتّضح أنّ " النّص القرآني في استخدامه لبعض الأصوات وتكرارها يقصد إلى تصوير بعض المواقف الإنسانية، وتشخيصها يشعرنا بما تحمله هذه الأصوات من طاقات نغمية وشحنات إيقاعية بمقدورها إضفاء بعض الأجواء النّفسية المؤثرة و الضلال الموحية على المعنى ."[38]

وهكذا تمكننا الدراسة الصوتية من تقديم تفسير دلالي للنّصوص اللّغوية تبعا لما تمدّنا به الأصوات من إيحاءات دلالية.

-إنّ العلاقة بين المبنى والمعنى هي علاقة تلازمية :

(تشابه المبنى) ⟸ (تقارب المعنى)

تكافؤية يحيل فيها كلّ طرف إلى الآخر:

(تقارب المعنى) ⟸ (تشابه المبنى)

بدليل بعض المعطيات اللّغوية التي تتماشى و الفرضيات التي تقبّلها بعض الدارسين .والتي تساعد في جانب من جوانبها من إيجاد الأصل اللّغوي لبعض الكلمات، يقول ابن جني في ذلك: "وذلك نحو ململت و مللت ، ورقرقت و رققت ، ألا ترى أنّ اتّفاق معنيهما قد حمل البغداديين على أن قالوا أنّ الأصل في حَثْحَثت : حَثَثْت ، وفي رَقْرَقْت رقَقت[39]".

فانظر كيف أحالتهم تلك الفرضية إلى تخمين الأصل تبعا لذلك، وهي بعد الفائدة ممّا اجتهد فيه ونبّه عليه الدارسون القدامى ، وهناك أبعاد أخرى، و مجالات تطبيقية أخرى قد تحيل إليها مثل هذه الفرضيات .

ولمّا كان كلّ تغيّر في المبنى يستلزم تغيّرا في المعنى ، ومادامت اللّغة بإجماع الأغلبية عرف اجتماعي، وأنّ العرب استطاعوا أن يطوّروا أداة تفكيرهم بوسائلهم الخاصة ، كما استطاعوا أن يضيفوا إلى الصيغ العربية العرفية العامة صيغا جديدة عرفية خاصة ، استطاع تمام حسان أن يبيح لنفسه أن يفترض وسيلة أخرى لإثراء اللّغة، وإنشاء المصطلحات بإضافة حروف أخرى من العربية غير التي اتّفق عليها العرب كحروف زيادة و قد حصروها في ما اجتمع في "سألتمونيها" منتهيا إلى نتيجة مفادها " أنّ حروف الزيادة ليست قاصرة على حدّ "سألتمونيها" وإنّما يصبح كلّ حرف من حروف العربية صالحا للزيادة ." [40]

وما خلص إليه تمام حسان هو مجرّد اقتراح لا يزال يحتاج كذلك إلى دعامة علمية لغوية.

إنّ الذي نريد أن ننتهي إليه هو أنّ الدارسون العرب القدامى قد أثاروا بعض القضايا وحاولوا- بما أسعفهم من جهد ووقت و إمكانيات – البرهنة على صحّتها بعيّنات محدودة من العربية ، وقد نبّهوا على مدى أهمّية هذه المواضيع و شرفها في أكثر من مصنّف ،وبقي على حدّ تعبير ابن جني من يثيرها ويبحث عن مكنونها[41]، وعن أصول العربية التي لا يزال أكثرها غفلا مسهوا عنه.

خاتمة:

-تعرض هذه الدراسة بعض الفرضيات التي خرج بها الدرس اللّغوي العربي(مسائل ابن جني على سبيل المثال) ممثّلة في:

*العلاقة الطبيعية بين الصوت ودلالته، تستلزم أن يكون في الألفاظ امتداد طبيعي للمعنى.

*التقارب الصوتي يستلزم التقارب الدلالي ،كما أنّ التقارب الدلالي يستلزم تقاربا صوتيا.

*التحليل الصوتي للنّصوص اللّغوية آلية من آليات التأويل الدلالي.

-تساعد هذه الدراسة على وضع المصطلحات باختيار الألفاظ المناسبة للمعاني الموضوعة بإزائها.

- تبرز هذه الدراسة جهود ابن جني في ميدان الأصوات والدلالة ،إذ تعدّ من الإنجازات المتميّزة في الدرس اللّغوي العربي، فقد تجاوز مرحلة البناء والتأسيس إلى مرحلة التأصيل والتنظير.

- العربية بنكتها وخصائصها واحدة من دلائل حكمته عزّوجلّ، وآية من آيات إعجازه تعالى، وبذلك صرّح ابن جني في أكثر من موضع في كتابه "الخصائص".

-اللّسانيات العربية علم لم يكتمل بعد، ولا يزال بحاجة إلى مزيد من البحث والدراسة الجادّة.

ولعلّ آخر ما نختم به هو دعوة إلى البحث فيما لم يُتوسّع فيه من هذه المسائل، وما بقي عالقا كقضايا تحتاج إلى مزيد بحث ودراسة، كما نوصي بضرورة إحياء التراث اللّغوي العربي، بإعادة قراءته، وتنظيمه، وتحليله، واستخراج فرضياته وقوانينه ، حتى نتمكّن من إرساء قاعدة لغوية علمية تمكّننا من الخوض في مسائل أخرى جديدة قد تنحو إلى العالمية ، ومن وضع حصانة لغوية تمكّننا كذلك من استيراد المعلومات الغربية و فهمها

الهوامش:

1. اللّغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان ،دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط:1994م،
ص: 11.

2. ينظر: المرجع نفسه ، ص: 73.
3. فقه اللّغة وخصائص العربية (دراسة تحليلية مقارنة للكلمة العربية ،وعرض لمنهج العربية الأصيل في التجديد والتوليد)، محمد المبارك ، دار الفكر الحديث ، لبنان ،ط:2، 1964م، ص:261.
4. الخصائص،ابن جني أبو الفتح عثمان الموصلي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط:4، (دت)، مج:2، ص: 167
5. المصدر نفسه مج:2، ص:159-160.
6. المصدر نفسه ، مج:2، ص: 157.
7. المصدر نفسه مج:2، ص:159.

8. دراسات في فقه اللّغة ، صبحي الصالح ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ط:1، 1379ه/1960م، ص:298.
9. الخصائص ، ابن جني ، مج:2، ص: 168.
10. التفكير اللّساني ، المسدي ، الدار العربية للكتاب ، ط:2، 1986م، ص: 81.
11. الخصائص ، ابن جني ، مج:2، ص: 156.
12. التفكير اللّساني في الحضارة العربية ، المسدي عبد السلام ، ص81.
13. الخصائص ، ابن جني ، مج:2، ص: 164-165.
14. التفكير اللّساني ، المسدي ، ص: 80.
15. الخصائص ، ابن جني ، مج:2، ص: 184.
16. العين، الفراهيدي أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم البصري ، تح:مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي،دار ومكتبة الهلال ،(دط،دت)، ج:1، ص: 56.
17. التفكير اللّساني ، المسدي ، ص: 83.
18. الكتاب، سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ، مصر، ط:3، 1408ه/ 1988م، ج:4، ص:14-15.
19. ينظر: الخصائص ، ابن جني ، مج:2، ص: 154.
20. التفكير اللّساني، المسدي ، ص: 82.
21. الخصائص، ابن جني ، مج:2، ص: 135.
22. التفكير اللّساني ، المسدي ، ص: 82.
23. ينظر المرجع نفسه ، ص: 81.
24. مريم:[83].
25. الخصائص، ابن جني ، مج:2، ص:148.
26. المصدر نفسه، مج:2، ص: 136.
27. ينظر: مقاييس اللّغة،ابن فارس أبو الحسين أحمد بن زكريا القزويني الرازي، دار الفكر، 1399ه/1979م، ج:3، ص:90-91.
28. ينظر :الخصائص، ابن جني ، مج: 2، ص:14-18.

29. الفائق في غريب الحديث والأثر،الزمخشري جار اللّه أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، تح:علي محمد البجاوي ، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة ، لبنان، ط:2 ،(دت)، ج:4، ص: 85.

30. الخصائص، ابن جني، مج: 2، ص: 140-141.
31. المصدر نفسه ، مج: 2، ص:136.
32. المصدر نفسه ، مج:2، ص: 136.
33. ينظر المصدر نفسه ، مج: 2، ص: 141.
34. ينظر: جماليات المفردة القرآنية في كتب الإعجاز و التفسير ، أحمد ياسوف ، إشراف و تقديم : عتر نور الدين ، دمشق، سوريا، ط:1، 1415ه/1994م، ص:222.
35. الأنعام :[74].
36. الكتاب ، سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر ، تح: عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، ط:1، ج:4، ص: 433-434.
37. معترك الأقران في إعجاز القرآن ، السيوطي جلال الدين أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن ، تح: أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط:1، 1408ه/ 1988م، ص: 4.
38. سورة الفرقان (دراسة أسلوبية)، عزيز عدمان ، إشراف : الأخضر جمعي، معهد اللّغة والأدب العربي ، جامعة الجزائر ، (دط)، 1994-1995م، ص:58.
39. سر صناعة الإعراب ، ابن جني أبو الفتح عثمان الموصلي،دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان،ط:1، 1421ه/ 2000م ، مج: 1، ص: 202.
40. اللّغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، ص:153.
41. الخصائص، ابن جني، مج:2،ص:154.